لم يشعر ببعض الراحة إلا حين ضمه المنعطف ، وأدرك ان صدره يتحلل من ضيقه. لقد تلاشت من مسمعه أصوات اولئك الشياطين يهتفون صاخبين: « ٥٠ الف ليرة. السحب يوم الخميس »، وامحت من عينيه ايديهم الممدودة الملوحة «ورقة بعشر ليرات، نصف ورقة بخمس . »

وتلمس مره اخرى هـذه الليرات السبع التي كان يضغط عليها في جيبه ، كأنه كان يخشى ان تفر من بين اصابعه . وما يدريه ؟ أما اوشكت اكثر من مرة ان تصبح ليرتين، ونصف ورقة من اوراق اليانصيب ؟ لقـد همّ ان يغمز اثنين او ثلاثة من هؤلاء الباعـة، على غير ما تمييز ، وتمثّل نفسه وهو يتناول نصف الورقة ، هذه التي تملأ صورتها الملونة رأسه ، فيدسها في جيبه، من غير ان ينظر الى رقمها ، ثم يمضي في طريقه الى المطبعة، وسعادته في التحرر من ذلك التردد وتلك الحيرة، اكثر منها في الشعور بانه يقبض على وعد بالثروة والغنى .

ودلف الى المطبعة، فأحس بعض الأسى أن سبقه الى الحضور حسني ونعيم ، ووقفا الى صندوقيهما يفرقـان الأحرف بحيوية .

وسارع الى خلع معطفه ، وهو يلقي عليهما السلام ، فسرت في جسمه موجة من برد . إنه إذن يوم آخر من ايام هـذا الشتاء القارس. وشعر به ، هذا الشتاء ، ينبض في الأحرف الرصاصية التي بدأ يجمعها كلمات . رصاص بارد يلسع كأنه الثلج ، او كأنه النار . النار . طلبوا اليه غير مرة ان يشعلها لهم في هذه القاعة الرطبة المحفورة في جوف الارض . ولكنه ، هو صاحب المطبعة ، اصمّ عن طلبهم اذنيه، فكان ان اعتادوا البرد اللاسع كالنار ، واصبحوا يعتبرونه الدفء الذي ينشدون .

★

ولم يكن الوجه الذي طالعهما في المساء ، حـين خلّفا باب المطبعة الخارجي، احد تلك الوجوه الشيطانية الصاخبة المربكة، بل كان عينين واهنتين مكسورتين تشيعان على تقاسيمه سيما الذل والمسكنة . وحين بسط اليه يده المعروقة وقال بصوت ضعيف : « آخر نصف ورقة يا سيدي ، ان شاء الله تربح » ، شعر بان كفه تمتـد الى جيبه فتخرج الليرات السبع ، وتعطيه ورقة الخمس ثم تعيد الباقيتين ، ومعهما ورقة اليانصيب ، لم تنظر الى ارقامها عيناه . يقيناً لقد اشترى الورقـة من الصبي إشفاقاً عليه ، لا طمعاً في الربح .

وقبل ان ينفتل نعيم ليسلك طريق بيته، قال له وهو يبتسم:

— ما دام في استطاعتك ان تهدر خمس ليرات ثمناً لأمل في الهواء ، فباستطاعتك ان تديني ليرة واحدة اشترى بها بعض الجبن لأولادي هذا المساء .

وشكره نعيم ومضى .

ودفعته قدماه ثقيلتين ، كأن حذاءه مسمر برصاص ، او كأن كابوساً يجثم على صدره فتزرح تحتـه اطرافه . منذ اشهر طويلة، وهو ممتنع عن شراء ورقة من هذه الاوراق المعسولة ، فلماذا تراه اليوم استجاب لاغرائهـــا ، ام يكون ذلك الصبي المسكين ؟.. ولكن ألم يكن بامكانه ان يعطيه عشرة قروش او عشرين، فيعفيه بذلك من شراء هذه الورقة ؟ خمس ليرات ؟ متى كان يستطيع ان ينفق مثل هذا المبلغ من غير تردد ولا خفقة صدر؟ أما وعد زوجته منذ ايام ان يبتاع بعض الحلوى لبشرى وسليم؟ ماذا تراها ستقول له بعد حين، إذ يبلغ البيت؟

— سليم يشكو البرد منذ حين ، وانت تسمع سعاله في الليل . ينبغي ان تشتري له قميصاً من الصوف . لا حاجة بنا الى الحلوى الآن .

واجاب زوجته والضيق يأخذ بأنفاسه :

— حق ما تقولين. سأشتري له قميصاً من الصوف من اجرة الاسبوع القادم .

وسُري عنه قليلاً حين رأى زوجته لاتسأله عن المبلغ الذي كانت تعلم انه محتفظ به . ورغبة في ان يشغلها عن التذكر ، ويشغل نفسه، دعا بشرى اليه وسألها ان تقرأ عليه درس الغد .

★

وحين جرى السحب ، بعـد يومين ، ربحت ورقته إحدى جوائز الخمسة الآلاف ، ربحت الفين وخمسمئة ليرة .. « ربحت ما يكسبه عرق جبيني في زهاء عامين ». لا شك ان الصبي كان مخلصاً في دعوته .

ظهر ذلك اليوم غـــادر المطبعة ، على ان يعود اليها بعد لحظات ، بعد ان يبتاع صحيفة تحمل نتائج السحب . ولكن

حين راجع الارقام ، ورأى احدها منطبقاً على رقم ورقته رانت على عينيه غشاوة ، فضلّ طريق المطبعة ورأى نفسه داخلاً إلى مقهى طلب فيه فنجاناً من القهوة .

ولكنه لم يشرب منه إلا قطرة . كان مرّ المذاق . ولقد اطفأ فيه سيكارته ، وهو لم ينفث منها إلا مجة . ثم نهض فاتجه الى البيت ، حتى إذا فتحت له زوجته الباب واستقبلته بدهشة متسائلة ، قال ان به صداعاً شديداً ، وأن بوده ان يلزم فراشه سحابة اليوم ، وانه خير له ان ينام ، إن كان باستطاعته ان ينام .

ولقد غفا ، وفي سمعه صوت زوجته تهمس لبشرى ان تخفض صوتها في مراجعة درسها .

وأفاق في موهن من الليل على سعال سليم .

ونهض اليه فردّ عليه الغطاء . ولكن السعال اشتد به ، ففتح عينيه وهمس باسم ابيه في نحيب إذ رآه ، ثم اغمض عينيه .

لا بأس عليك يا بني سآتيك بالدواء الناجع عند الصباح . سأبتاع لك ثياباً دافئة . سننتقل الى بيت خير من هذه الغرفة الرطبة . نم يا حبيبي ، لا تسعل بعد . ليس الصباح ببعيد يا بني .

وسمع انفاسه بعد لحظات ، يرسلها هيّنة هادئة ، لا يقطعها السعال .

وأخذ لفافة ، فمضى الى الممر الذي يفضي الى الغرفة ، ووقف بنافذته يدخن . كان الليل صافياً ولكنه بارد اللسعة . وكانت النجوم متلألئة ، ولكنها بعيدة الاشعاع . ان الصباح على مسير اربع ساعات تقريباً . لن يفتح مكتب صرف الاوراق الرابحة قبل الثامنة على اية حال . ستنهض زوجته قبل ذلك ، وسيتحدثان طويلاً فيما ينبغي لهما ان يبتاعاه مما يشعران بأمس الحاجة اليه منذ سنوات . سيقتنيان بعض الاثاث الجديد ، لبيتهم الجديد . وسيقتضي ذلك ردحاً من الزمن دون ريب . لا بد له إذن من الانقطاع عن العمل فترة من الوقت ، اسبوعاً او يزيد . ثم يعود الى المطبعة .

وتمثّل عودته الى المطبعة بعد غيبة اسبوع . لن تسهل عليه العودة . وما عساه ان يقول لهم ، هم رفاقه ، إذ يكونون جميعاً عيوناً متطلعة اليه ، متسائلة عن هذه الغيبة الطويلة ؟ أيكون يسيراً عليه ان يصارحهم بالحقيقة ، بأنه ربح مبلغاً من المال لا يحلم احدهم به ؟ وهل تراهم سيصمتون ؟ وإن هم فعلوا ، فأي معنى سيحمله صمتهم ؟ انهم قد لا يحسدونه ، ولكن ، أتراهم لن يشعروا بأنهم قد فقدوه ، بأنه اضحى بعيداً عنهم ، بأنه ليس رفيقاً لهم يكدح كما يكدحون ويشاركهم احاسيسهم ويقاسمهم همومهم ؟ إنهم موقنون بأنه اصبح غريباً بينهم ، لأنه بات أغنى منهم ، وأنهم دونه في المرتبة الاجتماعية ...

وكادت السيكارة تحرق شفتيه . بل ما الذي يمنعهم من الاعتقاد بانه قد خانهم ، لانه ارتضى ان يسلم قياده للحظ ، لانه ترك للقدر ان يتصرف بمصيره ؟ لانه لا يؤمن بعدُ بان العمل الشريف هو الذي تنتجه يداه ، ويسيل له عرق جبينه ؟

وأشعل سيكارة اخرى . وأي حق له بهذا المال ؟ أليس مما يخجله انه ليس ماله ، بل مال كثيرين من الأشقياء الذين تخنقهم اوضاع حياتهم ، فيلتمسون متنفساً لهم في بروق الأقدار ؟ وهو ، هو نفسه ، ألم يؤمن دائماً بان مصيره ليس إلا صنع يده ؟ ألم يكن في مستهل حياته العملية ، خادماً حقيراً يروح بين المطبعة ومكتب الصحيفة بالمسودات ؟ ألم يعمل بعد ذلك مع العاملين في طي اوراق الصحيفة ؟ او لم ينتقل بعدئذ الى هذه الصناديق يتعلم فيها جمع الأحرف وتفريقها ؟ أو ليس هو الآن مرشحاً لأن يصبح معلماً للعمال ؟ وما الذي يحول في المستقبل دون ان يصبح مدير مطبعة ، بل مالك مطبعة ؟ ان هذه كلها درجات ترقاها القدم الثابتة الواثقة من موضعها ،

القدم التي تقاوم الوحول وتنتصر عليها .

وتناهى الى سمعه صوت سليم وقد عاوده السعال . فدخل الى الغرفة ، وانحنى فجلس بجانب فراش ابنه ، ومد ذراعه يربت على كتفه ويهدئه . لا عليك يا بني . سيذهب السعال . سوف تشفى يا حبيبي . لا أعلم كيف يتم شفاؤك ، ولكني واثق من انك ستشفى .

وحين عاد سليم الى الرقاد ، نهض الى ثوبه فتناول منه ورقة اليانصيب ، وخرج الى الممر .

★

وحين دلف الى المطبعة ، صباح اليوم التالي ، بادره نعيم بهتاف :

— اين انت يا اخي ؟ لقد اوحشتنا بعد ظهر امس ...

فأجاب بان صداعاً قد اضطره الى ملازمة فراشه ، وان هذا الصداع قد زايله الآن تماماً . ورأى رفيقه يقترب منه ثم يمد له يده قائلاً :

— خذ ، هذه ليرتك . اعذرني على تأخري في ردها اليك. لقد خشيت بان تكون في حاجة اليها ، فأخذت امس سلفة على اجرتي .

وتناول الليرة ، فارتعشت بها كفه : انها ليرته الشريفة .

وشمر عن ساعديه واخذ يلتقط من صندوقه الأحرف الرصاصية ، فيشعر بلسع بردها الدافىء .

سهيل ادريس

اقرأ

الفن الحديث

مجلة الثقافة العامة

يحررها نخبة من الشباب الفني الواعي في العراق

تطلب من مطبعة سلمان الاعظمي — بغداد

العامل في مصافي النفط

هو الزيتُ ؟ أم حلمه الأسودُ
يقطّرهُ الكادحُ المجهد ؟
ليمتصَّ من ساعديه الحياة
كما يسلب القوتَ مستعبِد
ويسطرها قصةً للشقاء
على صفحات الثرى تُسرد
شرايينَ تمتدّ خلف الحدود
بعيداً ، ألا ليتها تفصد
ومستودعات رعاها الحليفُ
الغيورُ ، وغنّى لها السيّد

★

وحثّ الخُطى صامتاً في الدخان
كأن السكوت هو المقصد !
ولكنَّ خلف السكوت احتداماً
تجفّ السواقي ، ولا يخمد
فلو أنت أمعنت في وجهه
لأدركت أين توارى الغدُ
ففي مقلتيه غموضٌ يشعُّ
وفي ثغره همسةٌ تُرعد
وفي رأسه فكرةٌ ثرّةٌ
أُحسّ بها ثورةً تولد

بغداد — الكاظمية

محمد النقدي